الأزهر والحياة العامة

للأستاذ محمود الشرقاوى

كان مفيداً وقيما ذلك الحديث الذى أفاض به صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى « للرسالة » منذ أسبوعين ، واستطاع صاحب « الرسالة » أن يركزه وأن يلخصه لقرائها فى بيان واضح وفكر واضح

وكان قيما ومفيداً ما كتبه صاحب « الرسالة » فى مقاليه عن الأزهر ورجاله وأبنائه وحاله فى القديم والجديد وما نرجوه ويرجو منه المسلمون فى العصر الحديث

وقد أثار حديث الأستاذ الأكبر وأثار مقالا الأستاذ الزيات مئاراً من المقالات والمناقشات فى الرسالة وفى غيرها من الصحف، وكان بعض ما نشر من ذلك فيه كثير من الشطط

وكان من أقوم ما كتب عن ذلك ما نشره صديقنا الدكتور زكى مبارك فى مجلة أسبوعية على طريقته من الصيال

وقد حرك فى نفسى حديث الأستاذ الأكبر ومقالا الرسالة وما نشر بسببهما من الآراء والمناقشات شوقاً لأن أكتب بعض الملاحظات عسى أن يجد فيها الأستاذ الكبير صاحب الرسالة شيئاً من الحق وشيئاً من الإفادة

ونحن الذين تعلمنا فى الأزهر وقضينا فيه خير الأشطر من شبابنا لا نفتأ نشعر بالحنين إليه ونديم التفكير فيه ، مهما تباعد بيننا وبينه الأيام

* * *

يكتب الكاتبون ويقول القائلون إن الأزهر الحاضر متأخر متخلف عن عصره وعن الحياة الجديدة فى العالم، وأنه قديم فى الفهم قديم فى التفكير . ويكتب الكاتبون ويقول القائلون يطلبون أن يخرج الأزهر علماء كرجال الدين فى أوربا ، ثقافة ذهن ، واستنارة فكر ، وسعة عقل، ومرونة تفكير ، ولباقة أداء ودعوة، وأن يكون طلبته على شاكلة ما يكون أندادهم فى بلاد الغرب تهيؤاً واستعداداً

وهؤلاء الذين يقولون ذلك لا شك فى أنهم مخلصون فى أمانيهم ، ولا شك فى أن الأزهر لن يقوم بما يجب عليه فى حياة مصر وتقدمها ، وفى حياة الشرق وتقدمه ، ولن يساهم بنصيبه وقسطه فى توجيه الحياة الروحية والدينية والخلقية فى الشرق [وأوشك أن أقول فى العالم كله] — إلا إذا كان علماؤه كما يكتب الكاتبون ، ويتمنى المتمنون ، وكان طلبته كما يكتب الكاتبون ويتمنى المتمنون

وقد روى عالم من أكبر علماء الأزهر كلمة للمغفور له الملك فؤاد هى نبراس ما يكتبه هؤلاء ولا نشك فى صوابهم فيه

روى أن الملك فؤاد حدثه بأنه يريد أن يرى علماء الأزهر كأندادهم رجال الدين فى أوربا ، وأن هذه أمنية من أعز أمانيه

ولكن هؤلاء الكاتبين والباحثين ينسون أن الأمنية شىء والحقيقة شىء . ويفوتهم أن المشتهى المرغوب والمتمنى المطلوب شىء والأمر الواقع الذى لا مناص منه شىء

فالأزهر ليس كجامعة للاهوت فى أوربا ، وعلماء الأزهر ليسوا كرجال الدين فيها ، وطلبته ليسو كطلبة الجامعات أو الدراسات الدينية فيها . ولكن هذا لا دليل فيه على أن الأزهر رجعى وأنه قديم فى الفهم قديم فى التفكير

فإن هؤلاء الباحثين يقيسون الأزهر ورجاله وأهله على قياس أشباههم فى بلاد الغرب، ويقارنون بينهم وبين رجال الدين فيه ؛ ولا شك فى أن هذا القياس شطط وأنه بعيد عن الحكمة وعن الصواب

فالحياة المصرية والحياة الشرقية كلها بعيدة عن الحياة الغربية: الحياة العقلية والحياة الثقافية والحياة الأدبية وكل نوع ولون من أنواع الحيوات وألوانها وشكولها ، شتان بين الشرق والغرب فيها

ومن الشطط والبعد عن الإنصاف أن نفصل بين الأزهر وبين أنواع الحياة المصرية والشرقية وألوانها وأن نقارن بينه وحده وبين أوربا . بل الإنصاف يقتضينا أن نقارن بين الأزهر وبين غيره فى مصر ، وأن نوازن بين الحياة العقلية والحياة الذهنية والحياة الأدبية فيه، وبين هذه الحيوات فى مصر

والذين يقيمون الميزان بين الأزهر وبين أوربا نقول لهم : هل يرضيكم أن نقيم الميزان بين الجامعة المصرية وجامعات أوربا ؟

وأن نقيم الميزان بين المدارس فى مصر والمدارس فى أوربا ؟ وأن نقيم الميزان بين الحياة الأدبية والذهنية والثقافية فى مصر فى أى مظهر من مظاهر نشاطها وبين نظائرها وأشباهها فى أوربا ؟

ليقل لنا الدكتور زكى مبارك ، وقد خبر الجامعة والتعليم فى المدارس ويعرف كلة الحق : هل رضى عن شىء من مظاهر الحياة العقلية والأدبية والتعليمية فى هذه أو تلك ؟ وليقم لنا الميزان بين هذه الجامعة وهذه المدارس، أو ليقم لنا رجال الجامعة أنفسهم والمناحون عنها والمستطيلون بهـا الميزان بين الجامعة المصرية والمدارس المصرية وبين جامعات أوربا ومدارسها ، ليقيموا لنا ميزان العدل وقسطاس الحق ثم ليدلونا أيها الراجح وأيها المرجوح

فالأزهر يجب أن يحدد مكانه وأن يوزن نشاطه وأن تقوم المقارنة بينه وبين غيره فى مصر ، لأنه جزء منها ولا يستطيع أن يسير وحده ولا أن يتقدم وحده ولا أن يسبق فى جيش من المتخلفين ، والحياة الاجتماعية كمربة ذات عجلات أربع ، الأزهر واحدة منها، ولا يمكن أن تسير عجلة من العربة فتسبق، ولو كان ذلك لما استقامت العربة فى سير ولا حركة ، أو هى كالكائن الحى لا يمكن أن يسبق منه عضو عضواً فى النماء والحياة، وإلا كان الكائن الحى كله منتهياً إلى الهلاك والموت أو للتشويه والنقص .

فإذا أقمنا بعد ذلك الميزان بين الأزهر وبين غيره فى مصر والشرق ، وإذا وازنا بين الحياة الثقافية والذهنية والتعليمية فيه وبين ذلك كله فى غير الأزهر من المعاهد فى مصر والشرق ؛ فعند ذلك يستقيم الميزان ولا نكون قد بعدنا عن شريعة الإنصاف ؛ وعند ذلك أيضاً لا نظن أن الأزهر كفته تشيل ، ولا أن كفة غيره تميل ، ولا أن يكون غيره الراجح وأنه المرجوح

ومن الإنصاف أيضاً أن نقارن بين الأزهر الجديد وبين الأزهر فى الماضى ، حتى القريب منه ؛ وقد أشار الشيخ الأكبر إلى هـذه الملاحظة فى حديثه للرسالة وفى غيره ، وهى مقارنة لا تحتاج إلى كثير من الكلام

ومن المعنت أن نهمل التراث الزمنى والتقاليد القاسية عندما نتكلم عن تطور معهد هو بطبيعته ركن الأركان فى التقاليد ، بل هو الركيزة التى تثبت فيها الحيـاة العامة كلها فلا تنحرف ولا يجرفها التيار القوى من مغريات التجديد والاندفاع

١٤ - ٥٢

ولا نريد بعد ذلك أن نقول إن الأزهر عظيم عظيم ، ولا إنه يقوم بواجبه ، ولا إن التفكير فيه والحياة الذهنية فيه والتعليم فيه مما تغتبط به النفس وينشرح له الصدر ويبشر بمستقبل الخير . لا نقول ذلك ولا شيئاً منه ؛ ولكنا نقول إلى جانب هـذا إن الجامعة المصرية والمدارس الحكومية ، وإن الحياة الذهنية والحياة العقلية والحياة الأدبية فى مصر والشرق، ليست مما تغتبط به النفس وينشرح له الصدر ويبشر بمستقبل الخير ما دام هذا الحال ، ونريد أن نتمنى بعد ذلك ما تمناه الملك فؤاد لرجال الأزهر ومساواتهم بأندادهم رجال الدين فى أوربا ، ونزيد على أمانيه التمنى بأن تستوى الحياة المصرية كلها والحياة الشرقية، وأن يتساوى الشعب المصرى والشرق بهذه الأمم ذوات السيادة فى الغرب ، وأن نكون لهم أنداداً فى حياتنا كلها وفى نشاطنا كله

* * *

وفى حديث الأستاذ الأكبر و « تصحيح » صديقنا الدكتور زكى مبارك له ، موضوع آخر نترك الكلام عنه إلى عدد قادم من « الرسالة » فقد طال بنا اليوم الحديث

محمود الشرقاوى
عالم من الأزهر

أحـــدث قاموس

ظهرت الطبعة الجديدة لأحدث قاموس جيب (انجليزى عربى) تأليف الأستاذ محمد طه محمود ، مراعًى فيه الدقة ، وتحرّى الصواب ، وتنوّع الاشتقاق وكثرة الصور التوضيحية

وهو يشتمل على أكبر قدر من المصطلحات العلمية ، والفنية ، والطبية

وهو مطبوع طبعاً أنيقاً على ورق جيد ، ومجلد تجليداً فخماً ، ويقع فى ٤١٦ صفحة ، وثمن النسخة ٨ قروش ، والبريد قرشان

ويطلب من المكتبة التجارية بأول شارع محمد على بمصر
ومن المكاتب الشهيرة

صاحب الديوان المجد

مجد فى عمله ، لا يعرف فى جده هوادة ؛ فإذا رأيته يقرأ جريدة من الجرائد أو مجلة من المجلات ؛ فمن أعظم التجنى عليه أن تحمل عمله هذا على أنه مضيعة للوقت فى غير جدوى ، فما هو إلا استجمام لا بد منه لمن يعانى مثل عنائه المتصل ؛ وإذا رأيته يبدأ عمله عند العاشرة أو فى منتصف الحادية عشرة ، فاعلم أن ذلك من أثر إجهاده نفسه وتحامله على أعصابه فى اليوم السالف ، لا شىء غير ذلك ؛ وإذا رأيته يتزاور عن مكتبه ، فيحرق دخينة فى إثر دخينة ، أو يرتشف القهوة فى هدوء وسكون ، ويقضى فى ذلك ساعة أو بعض ساعة ، فترفق بهذا الجسم الذى أنهكه الجهد ، ولا تأثم فتظن بصاحبه الظنون

وصاحب الديوان هذا لا يطيق أن يرى وجوه الناس ، فإذا أبصر أحدهم مقبلاً ، أحس كأنما يقبل عليه مكروه من مكاره الزمن فيلقاه متأففاً متبرماً ، وإنه ليتمتم حين يراه بألفاظ لا أدرى أيسوقها ضد القادم الكريم ، أم ضد الزمن اللئيم الذى وضعه حيث يستقبل هؤلاء الذين يصرفونه عما هو فيه من جد لا يعرف معه هوادة ؟ !

دخلت عليه ذات يوم قبيل العاشرة ، فرأيته لسوء حظى أو لحسن حظى — لست أدرى أيهما الصواب — يترك مكتبه ليغادر الحجرة إلى حيث لا أعلم من الحجرات أو من الجهات ؛ فحاولت أن أستوقفه مترفقاً ، فاستمهلنى دقيقة واحدة وهو عابس ثم ازور عنى فى حركة سريعة خيل إلى معها أنه يخشى أن أرجمه بالقوة إلى مكتبه !

ولبثت أنتظره فى مقعد تفضل به على أحد زملائه ، ومرت اللحظات ثقالاً طوالاً ولم يعد ، حتى إذا يئست من رجوعه وهممت بالانصراف رأيته مقبلاً ، وجاء وفتح بعض أدراج مكتبه وأغلقها ولكنه لم يأخذ منها شيئاً ولا وضع شيئاً ، وفعل ذلك دون أن يجود بنظرة على أو أن يخطر بباله أن أحداً من عباد الله ينتظره لأمر متصل بعمله ولن يؤديه سواه !

واعترضت طريقه إذ رأيته يتأهب للخروج مرة ثانية ، وما التقت أعيننا وانفرجت شفتاى فى ابتسامة هادئة عن قولى : من فضلك ... حتى أشاح بوجهه عنى مقطباً قائلاً فى تبرم وضيق « عن إذنك دقيقة يا أفندم » ... ومضى وإنه لضائق بثقلى وتباتى فى موضى ، وخيل إلى بل لقد أيقنت أنه عقد النية على ألا يكلمنى ما دمت هناك كأنه لا مفاوضة عنده هو أيضاً إلا بعد الجلاء !

وصممت من جانبى ألا أنصرف أو يكلمنى ، وإن أخذتنى الحيرة كيف أحمله ولو على أن يلتفت إلى فضلاً عن أن يحادثنى ؛ ولقد كنت أرجح عودته إلا إذا غادر الديوان إلى داره وترك طربوشه حيث كان على مكتبه يحدث كل سائل عنه أنه هنا وأنه قادم بعد دقيقة ، وإن تتابعت فى غيابه الدقائق بل والساعات !

وجاء أخيراً فاستوى على كرسيه وفتح دفتراً كبيراً وراح ينظر فيه وعلى وجهه أمارات الجد وأمارات تجاهله وجودى فى وقت واحد ثم قطع عليه جده المصمم زميل له فأخبره أن فلاناً وفلاناً من الرؤساء استفهموا عنه ، فأجاب متكلفاً عدم المبالاة أنه ما كان يلعب وأنه هلك من الجرى هنا وهناك فى « الأرشيف » و « المستخدمين » و « الحسابات » وتحت وفوق باحثاً عن أوراق تتصل بما فى يديه من المسائل

وظللت ساكتاً لحظة ، فأقبل شخص بادى الوجاهة ، يطأ أرض الحجرة فى صلف وينظر نظرة ذى الجاه ، وفرحت إذ رأيته يتجه إلى صاحب الديوان المجد فيسأله فى لهجة الآمر عن مسألة طال به انتظار الإجابة عنها ؛ وتجهم له صاحب الديوان ولم يعبأ به ، ولما تهدده الرجل أن يرفع الأمر إلى رئيسه ، انطلق صاحب الديوان مزمجراً ونهض واقفاً يخبط المكتب بقبضة يده عدة مرات حتى لقد أشفق ذلك الرجل أن تمتد واحدة منها إلى صدره أو إلى بطنه فتراجع قليلاً ، وقد تطايرت الأقلام من مكامنها ، وسال المداد من المحابر ، وتناثرت الأوراق ، وزلزلت الدفاتر ، وخشمت الأصوات فى جوانب الحجرة ، والتفت أصحاب الديوان يتفرجون على عاصفة جديدة كم رأوا قبلها من عواصف ؛ وانطلق لسان المجد الثائر بعباراته المألوفة : « يا أفندى انت بتهددنى ؟ من فضلك ما تعطلنيش يا أفندى ... أما شىء غريب والله . روح اشتكى زى ما انت عاوز ... هو أنا فراش عندك ؟ الواحد طول النهار هلكان من العمل وجاى حضرتك تغلقنا ؟ »

ولم يكن لى بعد هذا الذى رأيت إلا الجلاء بلا قيد ولا شرط ، وقد أصابنى من دوار العاصفة ما زعزع إيمانى بقوتى ، ولم لا أقرر الحق فأقول : إنى منذ أن رأيت أهاويل الشر فى وجه صاحب الديوان قد رضيت من الغنيمة بالإياب ؟

« عين »